مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 15 العدد 2(السداسي الثاني 2023م)، ص. 671- 692

التصوير الفني لمشاهد يوم القيامة عند سيد قطب

Artistic imagery of scences of the day of resurrection by Sayed Kutb

مريم ابراهيمي*
جامعة الجزائر1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)
m.brahimi@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/12/14 تاريخ القبول: 2023/04/07 تاريخ النشر: 2023/06/18

الملخص:

يتحدث هذا البحث عن "نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم" وبالضبط في الآيات التي تتحدث عن مشاهد يوم القيامة، حيث تقوم هذه النظرية المنسوبة لـ"سيد قطب" –رحمه الله- على إعطاء نمط تفسيري جديد، ذو قالب أدبي ودراسة فنية.. تجعل القارئ يتعمق في المعنى الإعجازي لتلك الآية، وهذا ما نهدف إليه من خلال هذه الدراسة.

أما عن المنهج المستخدم في هذا البحث فهو المنهج التحليلي الوصفي، وذلك للوصول إلى معلومات دقيقة ونتائج مضبوطة... حيث أن أهم النتائج التي توصلنا إليها من بحثنا هذا هو أن هذه النظرية هي أفضل قاعدة وأدق صورة تفسيرية تنقل للقارئ وتجسد له كل المشاهد بصورة تجسيمية.. تجعله يعيش كل تلك الأحداث وكأنها شاخصة أمامه.

الكلمات المفتاحية: نظرية التصوير الفني، القرآن الكريم، المشاهد، يوم القيامة، سيد قطب

Abstract :

This research is about the technical presentation theory "attributed to Sayed Kutb -God blessed him- in the holy quran and especially in the veres show the judgment day scences. This theory gives a new pattern of explanation in a literary form and a technical study so that the reader goes deeper through the meaning of these verses and that what we aim at from our study.

* المؤلف المرسل

Howere, the method used in this research is an analytical and descriptive one so as to reach accurate information and precise results from which the most important one we reached is that this theory presents the most accurate explanatory image that embodies all the scenes to the reader as if in a real life situation.
Keyword: theory of artistic photography, the holy Quran, the scenes, the doomsday, Sayed Kutb.

المقدمة:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ... وبعد،

لقد جاء القرآن الكريم في ذروة بلاغية أعجزت العرب والعجم، فامتاز بقمة الجمال الأسلوبي، وروعة الأداء الفني.

فكثرت البحوث والدراسات قديما وحديثا، محاولين أصحابها اثبات أوجه الإعجاز فيه، فسِحر النُظم القرآني أثَّر على القلوب والعقول، وذلك بكثرة تصرفه في فنون الكلام، فنوع في الأساليب والصور، ليجعل من أصواته وحروفه وكلماته وتراكيبه منبعا إيمانيا يحيي النفوس فتزداد بذلك تدبرا وخشوعا، لتجدها تسجد طواعية لمنزل هذا الذكر العظيم.

لقد عالج القرآن الكريم عدة قضايا ومواضيع بأسلوب معجز، اتسم بتناسق ألفاظه، وانسجام معانيه، لتعطي مشهدا تصويريا بديعا، من هاته المشاهد مثلا ما ذكرته الآيات الكريمة التي تحدثت عن نعيم الجنة وما يلقاه الفائزون بها، وأيضا المشاهد التي صورت الجحيم والعذاب، فتجعل القارئ يرسم في مخيلته الأحداث وكأنها أمامه، وذلك بقوة الألفاظ وتسلسل المعاني التي امتزجت في صورة فنية بالغة الدقة.

ولقد نزل القرآن الكريم، وهو يُدحض شكوك الكافرين وشبهات الملحدين في حقيقة اليوم الآخر وأمر الساعة، فأمر المولى -عز وجل- رسوله محمد ﷺ بأن يحلف في ثلاث مواضع في القرآن، وكلها في أمر الساعة، وذلك في سورة يونس، قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: 53]، وفي سورة سبأ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾[سبأ: 3]،

أما الموضع الثالث ففي سورة التغابن، حيث قال المولى –عز وجل- : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: ٧].

ولما كانت مشاهد يوم القيامة الأكثر تنوعا وتأثيرا في القرآن الكريم، بتصوير ما يحدث للكون بما فيه من أرض وسماء وشموس وكواكب ونجوم وجبال وبحار، وما يحدث للإنسان وحاله من فزع وهول وخوف وذهول... وما صوره أيضا من مشاهد الحشر والحساب، ومشاهد النعيم والجحيم -لما كانت كل هذه المشاهد الأكثر حضورا وتأثيرا- رأينا أن نجعل هذه الدراسة خاصة بهذا اليوم وهذه المشاهد التصويرية الفنية، حيث سنقوم في هذا المقال ببسط هاته الصور حسب تسلسل أحداثها، وجمع بعض الآيات التي صورتها، لكن قبل ذلك رأينا أن نعطي مفهوما لمركَّب "التصوير الفني" ، ونبذة عن حياة صاحب هذه النظرية، كما سنعرض مجالات التصوير الفني وإعطاء نموذج حول كل مجال مع التوسع في مبحث مخصص لمشاهد يوم القيامة.

المبحث الأول: مفهوم نظرية التصوير الفني

(لقد كانت السّمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية، وابرازها في صور حسية، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية، والحوادث الماضية، والقصص المروية... ومشاهد القيامة، وصور النعيم والعذاب... كأنها كلها حاضرة شاخصة بالتخييل الحسي، الذي يفعمها بالحركة المتخيلة)[1].

لطالما عاش الكاتب الشهيد "سيد قطب" رحمه الله في ظلال القرآن وكنفه، فألف كتبا بينت تعلقه الكبير بكتاب الله وورعه به، قال في مقدمة تفسيره: (والحمد لله... لقد منَّ علي بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي، ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه)[2].

فكانت نظريته "التصوير الفني" الدافع الرئيس الذي جعله يخوض غمار التفسير، ويصنفون العلماء تفسيره ضمن نوع "التفسير الحركي الدعوي التربوي".

أولا: نبذة عن حياة المؤلف "سيد قطب" رحمه الله (1906م – 1966م):

سيد بن قطب بن ابراهيم، مفكر إسلامي مصري، من مواليد قرية "موشا" في "أسيوط" تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة (1353هـ، 1934م) وعمل في جريدة الأهرام[3].

عمل في مقتبل العمر بالدرس الأدبي، فكان أديبا عملاقا، وناقدا عبقريا، ثم اتجه اتجاهه الإسلامي ونذره القدر للعيش في ظلال القرآن، فقبع في زنزانة أصقلت روحه وقوت عقيدته، وتسلح فيها بالسلاح الذي ينبغي أن يتسلح به كل مفسر للقرآن الكريم، ذلك هو سلاح التقوى[4].

قبل ذلك كان "سيد قطب" قد نشأ في عائلة كريمة، في بيت له نصيب معلوم من السعة والعلم والثقافة، كما يمتاز بصبغته الدينية[5].

---

[1] سيد قطب ابراهيم حسين الشاربي (ت1385هـ)، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1438هـ، ص294.

[2] سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط17، 1412هـ، ج1، ص11.

[3] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص أ

[4] وصفي عاشور أبو زيد، في ظلال سيد قطب –رحمه الله- لمحات من حياته وأعماله ومنهجه التفسيري، ط1، 1430هـ، صوت القلم العربي، مصر، ص7.

[5] عبد الباقي حسين، سيد قطب حياته وأدبه، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط1، 1985م، ص12.

وكانت أمه معروفة بحبها وشغفها بالقرآن الكريم، حيث أرسلته إلى المدرسة الأولية، وأمنيتها في ذلك أن يفتح الله عليه ويحفظ القرآن كاملا[1].

ويظهر لنا شغفها بالقرآن من خلال مقدمة كتابه "التصوير الفني في القرآن" –والذي أهداه إياها- قائلا: (إليك يا أماه أرفع هذا الكتاب...)[2]، فيظهر لنا اهتمامها بالقرآن وترتيله من خلال مقدمة هذا الكتاب: (لطالما تسمعت من وراء "الشيش" في القرية، للقراء يرتلون في دارنا القرآن طوال شهر رمضان، وأنا معك –أحاول أن ألغو كالأطفال- فتردني منك إشارة حازمة، وهمسة حاسمة، فأنصت معك إلى الترتيل، وتشرب نفسي موسيقاه، وإن لم أفهم بعد معناه)[3].

كما وجد والدا متصفا بمحاسن الكرامة والتقوى، يستلذ بذكر الله، ويتمتع بتلاوة كتابه، وهو عند أهل الريف شخصية محترمة تهوى إليها القلوب عزا واحتراما[4].

فقد ساهمت هذه النشأة المحاطة بالعلم والبيئة المرسومة بالقرآن في شخصية "سيد قطب" العلمية والأدبية والإسلامية.

ألف العديد من الكتب، منها "النقد الأدبي –أصوله ومناهجه" "الإسلام ومشكلات الحضارة"، العدالة الاجتماعية في الإسلام"، "التصوير الفني في القرآن"، "المستقبل لهذا الدين"، "في ظلال القرآن".

كتب في مجلتي "الرسالة" و"الثقافة"، وعُيّن مدرّس للعربية فموظفا في ديوان وزارة المعارف، ثم مراقبا فنيا للوزارة.

ترأس قسم نشر الدعوة، وتولى تحرير جريدة الإخوان المسلمين (1953م،1954م) وسُجن معهم، فعكف على التأليف وهو في زنزانته إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم -رحمه الله تعالى- في 29 أغسطس سنة 1966م.

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ص5.
[2] سيد قطب، المرجع نفسه، ص5.
[3] سيد قطب، المرجع السابق، ص5.
[4] وصفي عاشور، المرجع السابق، ص17.

فما كان استشهاده إلا بعثا لأرواح جديدة طال رقادها، وما كانت كلماته –كما وصفها- إلا عرائس من الشمع، فلما استشهد في سبيلها دبت فيها الروح، وكتبت لها الحياة، وظهرت بعد استشهاده دراسات عديدة، وبحوث متنوعة، تناولت جوانب حياته المختلفة[1]

ثانيا: محتوى نظرية التصوير الفني:

يعرّفها صاحبها في كتابه "التصوير الفني" قائلا: (التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي...)[2].

ويزيدنا توضيحا لهذه النظرية بذكر أدواتها ووسائلها قائلا: (ويجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن، فهو تصوير باللون وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في ابراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان..)[3].

فهو وجه من وجوه الإعجاز عند "سيد قطب" يظهر المعنى المراد بتناسق متكامل ومنسجم، وتركيب لفظي عجيب وموسيقى مناسبة لجو الآية، وهو مظهر من مظاهر الإعجاز، لأن التصوير المألوف يقتضي وجود ألوان وشخصيات وحركات ملموسة حية، ولكن في القرآن ما من ذلك شيء، غير الألفاظ والمعاني التي تحملها، يقول: (فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية، وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر. أدركنا بعض أسرار إعجاز تعبير القرآن)[4].

[1] عبد الباقي محمد حسين، المرجع السابق، ص3.
[2] سيد قطب، المرجع السابق، ص45.
[3] سيد قطب، المرجع نفسه، ص47.
[4] سيد قطب، المرجع السابق، ص46.

ثالثا: مجالات التصوير الفني:

مجال التصوير الفني هو القرآن كله، ماعدا الآيات العقائدية، وآيات الأحكام، يقول "سيد قطب" في هذا الصدد: (والأمثلة على هذا الذي نقول: هي القرآن كله، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرناها حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد، أو حالة نفسية، أو صفة معنوية، أو نموذج إنساني، أو حادثة واقعة، أو قصة ماضية، أو مشهد من مشاهد يوم القيامة، أو حالة من حالات النعيم والعذاب، أو حيثما أراد أن يضرب مثلا في جدل أو محاجة...)[1].

وفيما يلي عرض لمجالات التصوير الفني مع ضرب مثال لكل مجال[2]:

مجال التصوير الفني	الآية	السورة ورقم الآية	المعنى المتصوَّر من الآية
تصوير المعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية	﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ ﴾	ابراهيم -18-	زادت هاته الصورة حركة وحياة لمعنى الآية، بحركة الريح في يوم عاصف تذرو الرماد، وتذهب به بددا إلى حيث لا يجتمع أبدا.

[1] سيد قطب، المرجع نفسه، ص46.

[2] ينظر: سيد قطب، المرجع نفسه، ص47 إلى ص76.

تصوير الحالات النفسية المعنوية	﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ ﴾	آل عمران -103-	رسمت هذه الصورة للمسلمين قبل أن يسلموا، يوم كانوا معرضين لجهنم بما هم فيه من الكفر... هكذا كنتم: "على شفا حفرة" موشكين على الوقوع، تكاد أقدامكم تزل فتهوون. إنها صورة قلقة متحركة... ولو استطاعت ريشة مصور بالألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيلة في صورة صامتة لكانت براعة تحسب في عالم التصوير، والمصور يملك الريشة واللوحة والألوان، أما هنا فألفاظ وحسب يصور بها القرآن.
تصوير النماذج الإنسانية	﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ ﴾	محمد 20	تصور هذه الآية حال بعض ضعاف العقيدة، ضعاف العزيمة، لا يتبين ضعفهم في فترة الرخاء، فإذا جد الجد، وجاء الشد، ظهر هذا الضعف على أتمه... ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ هؤلاء يصورهم نموذجا واضحا بتلك الكلمات ومنظر المغشي عليه من الموت معهود، فما هو إلا أن يذكر التعبير، حتى تبرز صورتهم في الضمير، مصحوبة بالسخرية والتحقير.
تصوير مشاهد الحوادث الواقعة والأمثال والقصص (سنأخذ نموذج واحد منها وهو القصص الحقيقية)	﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ	البقرة 128-127	هذا مشهد من قصة ابراهيم، وهو يبني الكعبة مع ابنه اسماعيل، وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان. ففي هاته الأيات حدثت حركة عجيبة في الانتقال من الخير إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وردته حاضرا، فالخبر ﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت

	وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾		واسماعيل﴾ كان كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد: البيت، وابراهيم واسماعيل يدعوان هذا الدعاء، وكم كانت الصورة سينقص جمالها ويذهب بريقها لو قيل: (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ويقولان: ربنا تقبل..) إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة... وهذا هو الفارق الكبير، فسّر الحركة كله في حذف لفظة واحدة... وذلك هو الإعجاز.
تصوير مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب	سنرى هذا في المبحث القادم من خلال عدة نماذج		

المبحث الثاني: بلاغة الإعجاز التصويري لمشاهد يوم القيامة

سبق لنا وأن تطرقنا لمفهوم "التصوير الفني" وكيف يؤثر على جمالية الأسلوب القرآني، وكيف يجعل مشاهد يوم القيامة صورا حية يعيشها القارئ بكل تفاصيلها وحيثياتها، حتى أنه يشعر بأن الساعة قد أتت وموعدها قد حل، وأن أحداثها جميعا شاخصة أمامه، وهو جالس في مكانه يتلو تلك الآيات.

فمشاهد القيامة في القرآن من أبرز مواضع التصوير فيه، وهي التي تنطبق عليها – بصفة خاصة- جميع سمات هذه النظرية، كما ذكر "سيد قطب" في مقدمة كتابه "مشاهد القيامة في القرآن الكريم" قال: (لقد عني القرآن بمشاهد القيامة: البعث والحساب، والنعيم والعذاب، فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر، موضوعا فحسب، بل عاد مصورا محسوسا، وحيا متحركا، وبارزا شاخصا، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة، رأوا مشاهده وتأثروا بها، وخفقت قلوبهم تارة واقشعرت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرة، وعاودهم الإطمئنان أخرى)[1].

يعيشون كل هذه الأحداث من خلال قوة نظم تلك الآيات البينات، بتناسق ألفاظها وانسجام معانيها، وجمال إيقاعها...

والآن سنتطرق إلى مشاهد قيام الساعة وذلك بمراعاة تسلسل أحداثها حسب ما ورد في الكتاب والسنة.

أولا المشهد الأول: النفخ في الصور:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾[الزمر: ٦٨]. و"الصُّور" في لغة العرب هو القرن[2] أو البوق.

هذه الآية تتضمن المشهد الأول هو النفخ في الصُّور، وفيه مرحلتين: وهما النفخة الأولى "ونُفخ في الصُّور" وأيضا النفخة الثانية "ثم نُفخ فيه أخرى" (فالنّفخة الأولى التي هي للإماتة بقرينة النفخة الآتية التي هي للبعث والنفخ: نفخ الريح في الشيء: يقال نفخ بفمه أخرج منه الريح)[3].

---

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ص42.

[2] محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (ت711ه)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414ه، ج4، ص476.

[3] اسماعيل حقي بن مصطفى الإستنبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت1127ه)، روح البيان، دار الفكر، بيروت، لبنان، 136/8.

والنَّفخ في القرآن على خمسة أوجه:

1- قال تعالى:﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ التحريم: ١٢

2- قال تعالى: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: ٤٩

3- وقوله:﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾الحجر: ٢٩

4- وقال:﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ الكهف: ٩٦

5- وقال:﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الزمر: ٦٨

و"الصُّور" هنا ليس جمعا "لصورة" كما قال البعض، لأن صورة جمعها صور (بفتح الواو)، بل الصُّور هو (قرن من نور ألقمه الله اسرافيل وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى وله جناح بالمشرق وجناح بالمغرب والعرش على كاهله وأن قدميه قد خرجتا من الأرض السفلى حتى بعدتا عنها مسيرة مائة عام... وعظم دائرة القرن مثل ما بين السماء والأرض)[1].

وقوله "فصُعق" أي مات كل الخلق "إلا ما شاء الله" ممن ثبته الله عند النفخة، كالشهداء[2].

فالنفخة الأولى تمثل أول مشاهد يوم القيامة التي استنكرها الكافرون وجحدها الجاحدون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٤٨ – ٥٠]

فالنفخة الأولى قد صعق الله بها من في السموات ومن في الأرض، أما النفخة الثانية أو المشهد الثاني في هذه الآية هو تصوير الناس وقد أحياهم الله للحشر والحساب: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ الزمر: ٦٨

قال "الزمخشري": (يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت، إذ فاجأه خطب، وقيل ينظرون ماذا يفعل بهم؟ ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم)[3].

[1] اسماعيل الحنفي، المصدر السابق، ج8، ص136.

[2] عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله سعدي (ت1376ه)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة ط1، 1420ه، ج1، ص729.

[3] أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (538ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي،بيروت، ط3، 1407ه، ج4، ص145.

فيصور القرآن الكريم هول قيام الساعة في جو عرضت فيه حالة البشر وهم مذهولين مبهوتين جامدين لا يعلمون ماذا يفعلون، بل لا يستطيعون فعل أي شيء.

يقول سيد قطب: (وهو مشهد رائع حافل، يبدأ متحركا ثم يسير رويدا حتى تهدأ كل حركة، وتسكن كل نأمة، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ورهبة الخشوع بين يدي الله –عز وجل- الواحد القهار، هاهي ذي الصيحة الأولى تنبعث، فيصعق من يكون باقيا على ظهر الأرض من الأحياء، ومن في السموات، كذلك -إلا من شاء الله- ... ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا صيحة الحشر والتجميع ولا تصور ضجة الحشر وعجيج الزحام، لأن هذا المشهد يرسم هنا في هدوء ويتحرك في سكون)[1].

فمشهد النفخة الثانية يعني بتصويرهم، وقد أحياهم الله للحشر والحساب، كما عني القرآن الكريم أيضا بتصوير الهول العظيم الذي يشمل الطبيعة والنفس الإنسانية، وهي مشاهد حية متحركة.

ثانيا المشهد الثاني: الحشروالعرض على الله:

فمن أعظم أهوال يوم القيامة التي يجب على المؤمن الإيمان بها والاستعداد لها، موقف الحشر، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩ – ٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾[الحجر: ٢٥] وقال أيضا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾[هود: ١٠٣] وغيرها من الآيات الكثيرة التي استحوذ موقف الحشر والعرض فيها على مساحة كبيرة في الذكر الحكيم، وهذا لعظم الموقف (ففي مشهد الحشر تتبدى صور من النهاية السعيدة وإرهاصات الرضا والطمأنينة للمؤمنين، والخيبة والبوار والذل والصغار والنكال والنار للكافرين)[2].

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾[الإسراء: ١٣ – ١٤] جاء في الظلال حول تفسير هذه الآية: (وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله، أي ما يقسم له من العمل، وهو كناية عما يعمله،

[1] سيد قطب،في ظلال القرآن، ج5، ص3062.

[2] فاطمة البيومي محمود سلامة، معالم الإعجاز القرآني في تصوير مشاهد القيامة، المؤتمر العلمي الدولي الخامس، آفاق الإعجاز في القرآن الكريم، أفريل 2017، ج5، ص2219.

وإلزامه له في عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقته على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وابرازها في صورة حسية، فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه. وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا يوم القيامة، فهو يصور عمله مكشوفا، لا يملك إخفاءه... ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور، فإذا هو أعمق أثرا في النفس وأشد تأثيرا في الحس)[1].

فمشهد الحشر يصور لنا نهايتين مختلفتين متضادتين، الأولى: النّهاية السعيدة للمؤمنين، نهاية الطمأنينة والرضا (فالمؤمن لشدة سعادته وفرحه تراه يسعى هنا وهناك في أرض المحشر، حين يأخذ كتابه بيمينه فرحا سعيدا مغتبطا قائلا: "هآؤم اقرؤا كتابية" فالمتقون يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم "وهم من فزع يومئذ آمنون")[2].

أما النّهاية الأخرى فهي نهاية الخيبة والبوار والعذاب والفزع والخوف والنار –والعياذ بالله- نهاية الكافرين ومصيرهم، فتراهم يومئذ "مقرنين في الأصفاد" (ويحشرون يوم القيامة ﴿على وجوههم عميا وبكما وصما﴾ [الإسراء 97] فإذا رأيت رجلا معرضا عن القرآن في الدنيا فاعلم أنه في عيشة ضنك، وهو أيضا ذلك الذي يمشي في أرض المحشر أعمى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] وترى المجرمين يومئذ زرقا)[3].

فموقف الحشر في القرآن الكريم قد استحوذ على العديد من الآيات، فاستعرض مشاهد مختلفة تصور تارة حال المستضعفين التابعين والمستكبرين المتبوعين، وتصور تارة حال الأمة المؤمنة الفائزة الناجية.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١]

فهذا الحوار بين التابع والمتبوع، أو بين المضل والمضَّل يجعل القارئ للقرآن يتصور هؤلاء الأشخاص الضعفاء وهم في خيبة وحسرة على تبعيتهم لهؤلاء المستكبرين الضالين... لكن حسرتهم اليوم لا تنفعهم ولا تغنيهم من العذاب الأليم "ما لنا من محيص".

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ج4، ص2217.

[2] فاطمة البيومي، المقال السابق، ج3، ص2219.

[3] فاطمة البيومي، المقال السابق، ج3، ص2220.

(هذا المشهد هو من أعجب مشاهد يوم القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين... والضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حيث تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة... والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم: ﴿إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾؟ وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم)[1].

هنا يربي القرآن المسلم على قوة الشخصية، وصلابة الإرادة، وأن يلتمس الهداية منه -ﷻ- وأن لا يتبع الضالين المضلين الذين لم ينفعوا حتى أنفسهم.

أما الجهة المقابلة، وبعيدا على مسرح هؤلاء المستضعفين والمستكبرين وحسراتهم وخيبتهم، نجد القرآن الكريم ينتقل بنا إلى تصوير الفرقة المؤمنة، الفرقة الفائزة بجنات الخلد، قال تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾[إبراهيم: ٢٣]

فهنا انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حالهم من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارا لتفاوت الأحوال، فلم يدخلو حينها في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنهم حينئذ في سلامة ودعة، وقوله "بإذن ربهم" إشارة إلى العناية والاهتمام، ووجه ذكر "تحيتهم فيها سلام" إشارة إلى أنهم في أنس وحبور، وذلك من أعظم لذات النفس[2].

وسنعرض صورة أخرى تعكس حال الظالمين يوم الحشر، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾[الفرقان: ٢٧ – ٢٨]

هذا التخير في الألفاظ، والتدقيق في المعاني، إنما الغرض منه صفع الظالم على وجهه حتى يفيق من غفلته وينتهي عن ظلمه قبل فوات الأوان، جاء في الظلال: (ثم يعرض مشهدا من مشاهد ذلك اليوم ... مشهد الظالم يعضُّ على يديه من الندم والأسف والأسى...

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ج4، ص2096.

[2] ينظر: محمد الطاهر بن عاشور (1393ه)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج11، ص104، ج13، ص222.

ويصمت كل شيء من حوله، ويروح يمد في صوته المتحسر، ونبراته الأسيفة والإيقاع الممدود، يزيد الموقف طولا، ويزيد أثره عمقا حتى ليكاد القارئ للآيات والسامع يشاركان في الندم والأسف والأسى... ﴿ويوم يعضّ الظالم على يدي﴾.. فلا تكفيه يد واحدة يعض عليها، إنما هو يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من الندم الاذع المتمثل في عضّه على اليدين، وهي حركة معهودة يرمز بها إلى حالة نفسية فيجسمها تجسيما)[1].

ولا يخفى على القارئ إيثار القرآن لهذا الأسلوب المجازي المتمثل في الاستعارة في الفعل "يعضّ" على التعبير بـ (يتحسر أو يندم أو يأسف) مثلا، وقد أشار الدكتور "عبد الله دراز" إلى هذه المزية الفريدة في لغة القرآن الكريم قائلا: (فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شيء يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسها رخما بالمعنى المراد وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة... وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان)[2].

ثالثا المشهد الثالث: الحساب والميزان:

قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾[القارعة: ١ – ١١] **تعرض** هذه السورة مشهد من مشاهد يوم القيامة فيصور لنا أهوال ذلك اليوم وفزعه.

سميت النفخة الثانية "بالقارعة"، يقول الزمخشري: (أي تقرع يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار)[3]. ويقول أيضا في موضع آخر واصفا هذا اليوم وسبب تسميته "بالقارعة" لأنها (تقرع الناس بالأفزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار)[4].

---

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ج5، ص2560.

[2] محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، بيروت، لبنان، ص92.

[3] الزمخشري، الكشاف، ج4، ص789.

[4] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص598.

فيسبق غالبا مشهد الحساب في القرآن الكريم تصوير أهوال القيامة، وفزع اليوم الآخر، ولعل وجه البلاغة في هذه التذكرة هي لفت نظر المتلقي، وجذب انتباهه إلى هول ذلك اليوم، فإذا وقفت النفس على هذه الحقيقة أردفها بأخرى، وهي هذا القسطاس الذي توزن به أعمال العباد[1].

فالمشهد المعروض في السورة كله عن حقيقة ذلك اليوم العظيم، أو حقيقة "القارعة" (وهنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال، فيبدو الناس في ظله صغارا ضئالا على كثرتهم، فهم "كالفراش المبثوث" مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه وجهة، ولا يعرف له هدفا ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح، وتعبث به حتى الأنسام!

فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر، تمهيدا لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء)[2].

فبدأ بالتساؤل، ثم يأتي الجواب التعظيمي مباشرة، بغية لفت الأنظار إلى أمر ذي بال وخطر (هذه البلاغة القرآنية التي تفصل هذا التفصيل، وتوضح الميزان العدل الذي توزن به أعمال العباد يوم القيامة، فمن ثقلت موازينه فقد فاز ونجا، ونعم بحياة مطمئنة ناعمة راضية، وفي قوله تعالى: "فهو في عيشة راضية" إسناد مجازي، فالعيشة مرضية وليست راضية، والفاء في قوله "في عيشة راضية" فكأنه مغموس في هذه العيشة، وتنكير "عيشة" تعظيم لها، وهذا التنكير يجعل العقل يذهب فيها كل مذهب ويلقي في الحس والشعور والخيال ألوانا من العيشة الهنية... وأما من خفت موازينه فمقصده الهاوية أي النار... والتعبير بالام يوحي بالملجأ والملاذ...)[3].

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ وما أدراك ما هيه﴾ هذا النمط من السؤال معهود في آيات كثيرة من الذكر الحكيم، يحمل التهويل والبحث عن الحقيقة (لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك! ثم يجيئ الجواب كنبرة الختام: "نار حامية".. هذه هي أم الذي خفت موازينه

[1] فاطمة البيومي، المداخلة السابقة، ج3، ص2227.

[2] سيد قطب، المرجع السابق، ج6، ص3960.

[3] فاطمة البيومي، المداخلة السابقة، ج3، ص2227، 2228.

أمه التي يفيئ إليها ويأوي! والأم عندها الأمن والراحة. فماذا هو واجد عند أمه هذه... الهاوية.. النار.. الحامية!! إنها مفاجئة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية)[1].

فتلك المقابلة في السورة بين الفريقين، أو بين من خفت موازينه وبين من ثقلت موازينه، بعد عرض جملة من مشاهد الطبيعة وما آلت إليه في ذلك اليوم العظيم، مع تشخيص الآدميين في تصوير حالتهم، وهم ينتظرون الحساب، فجاء جو هذه السورة مناسبا لأهوال ذلك اليوم (من حيث قوة الموسيقى في حروفه وتآخيها في كلماته، وتلاقي الكلمات في عباراته، ونظمه المحكم في رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كل كلمة لفقا مع أختها... ومعانيها تجدها مؤتلفة مع ألفاظه، وكأن المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الألفاظ قُطّعت لها وسوِّيت على حجمها)[2]. فساعد كل ذلك على نقل تلك الأهوال وذلك القرع إلى وجدان المتذوقين.

(وكلمة القارعة بجرسها المدوي ورنينها الصاخب الموحش عكست هذا الهول الشديد الذي أشاع بظلاله جوا من الخوف والرهبة في النفوس وزاد من هذا الخوف هذا الاستفهام التهويلي التفخيمي)[3].

رابعا المشهد الرابع: النعيم والعذاب يوم القيامة

بعد مشهد النفخ في الصور، ومشاهد الحشر والعرض، والحساب والميزان، ذكر القرآن الكريم أيضا العديد من مشاهد النعيم والعذاب في الآخرة، ففصل في أحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار، وبين ما يجزي الله تعالى عباده المتقين، وما يعاقب به المجرمين الضالين (وصور هذه المشاهد تصويرا حيا تتلون مشاهده، ويختلف المشهد طولا وقصرا، وإيجازا وإطنابا، وخبرا وإنشاءا، بيد أن الغرض الديني في كل هذه المشاهد يبدو واضحا جليا ويغلب عليه طريقة العرض والحوار)[4].

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ج6، ص3961.

[2] محمد بن أحمد بن مصطفى أبي زهرة (ت1394ه)، المعجزة الكبرى، القرآن، دار الفكر العربي، ص72.

[3] فاطمة البيومي، المداخلة السابقة، ج3، ص2229.

[4] فاطمة البيومي، المداخلة السابقة، ج3، ص2233.

من أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾[محمد: ١٥]. فهذا التباين والاختلاف يبدو واضحا جليا بين حياة كلى الفريقين "أصحاب الجنة وأصحاب النار"، والفارق في الجزاء واضح، يقول السيد قطب (والملاحظ عموما أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى السامعون في مراقي التربية والتهذيب ... وهما نوعان من الجزاء: هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله، والنوع الآخر: "كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم" وهي صورة جسية عنيفة من العذاب، تناسب جو سورة القتال، وتتناسب مع غلظ طبيعة القوم...)[1].

فلم يكونوا في الدنيا سواء، لا في الحال، ولا في المنهج ولا في العقيدة ولا في العمل، فطبعا لن يكون جزاءهم نفس الجزاء، ولن تكون حالتهم في الآخرة نفس الحال.

وصورة أخرى من صور الجزاء يوم القيامة، يقول سبحانه وتعالى في وصف أهل الجنة، وهم فيها: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[الواقعة: ١٠ – ٢٤].

يعكس هذا المشهد النعيم الأكبر ، نعيم القرب من ربهم "أولئك المقربون" وجنات النعيم كلها لا تساوي ذلك التقريب ولا تعدل ذلك النصيب، فهو نصيب "ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين" ويبدأ المولى -عز وجل- بعد بيان منهم "السابقون" يأخذ في تفصيل مناعم الجنة التي أعدت لهم "على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين" إلى آخر الآيات التي تصف ذلك النعيم الخالد.

وكما فصل القرآن الكريم في هاته الآيات أحوال أهل الجنة والنعيم الذي منه الله عليهم، فصل أيضا في آيات كثر أحوال أهل النار –والعياذ بالله- وما فيها من عذاب أليم.

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ج6، ص3292.

منها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾[فاطر: ٣٦ – ٣٧]

فيعتمد التصوير في كثير من مشاهد العذاب على الفعل المضارع، وذلك لاستحضار المشهد وإيحائه وجعله حاضرا ملموسا محسوسا تراه العين وتسمعه الأذن وتتملاه النفس "لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها" فلا هذه ولا تلك، فلا يموتوا وتكون الموت رحمة لهم من العذاب، ولا يخفف عنهم ذلك العذاب.

ثم تطرق أسماعنا لفظة "يصطرخون" بأصواتها المفخمة الغليظة، فتبعث في النفوس القلق والاضطراب وعدم الاستقرار، جاء في الظلال: (ثم هانحن أولاء يطرق أسماعنا صوت غليظ محشرج مختلط الأصداء، متناوح من شيء الأرجاء، إنه صوت المنبوذين في جهنم... وجرس اللفظ نفسه يلقي في الحس هذه المعاني جميعا)[1].

ثم عقَّب القرآن تصوير اصطلائهم في جهنم ببيان صدق التماسهم واعترافهم بالندم والإنابة ولكن بعد فوات الأوان، قالوا "ربنا أخرجنا نعمل صالحا".

وهذا المطلب يزيد في إيضاح مشهد الندم ويُظهر عظمة العذاب الذي هم فيه.

وهكذا قد عبَّر القرآن الكريم في العديد من آياته على صور النعيم، كما عبر على صورة العذاب، وذلك في نسق مطرد من السمو وجمال النظم، زصحة التركيب، وعمق المعنى، ودقة الصياغة، وروعة التعبير، وملائمة الموسيقى لمقتضى الدلالة.

[1] سيد قطب، المرجع السابق، ج5، ص2945.

الخاتمة:

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام المصطفى، أما بعد:

فيمكن القول أن نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم قد اتَّسمت مشاهد يوم القيامة، وجعلتها ترقى إلى أعلى مستويات الإدراك الإنساني.

فذلك التدرج بين مشاهد النفخ والعرض والحساب، وصور النعيم والعذاب.. كلها جاءت بأسلوب ومعجز يدلُّ على عظمة الخطاب القرآني وجودته في إبراز المعاني الذهنية والحالات النفسية في صور حية حاضرة تتملاها النفس، وتراها العين، وتسمعها الأذن، بل ويذهب فيها الخيال كل مذهب.

إنَّ المتأمل لمشاهد القيامة يري أنها تسير في نسق مطرد من السُّمو، وجمال النُّظم، وصحة التركيب وعمق المعنى، ودقة الصياغة، وروعة التعبير، رغم تنقله بين المشاهد والمعاني المتعدّدة التي حواها اليوم الآخر... فنجده ينتقل بين الوعد والوعيد، والتبشير والتحذير، فمهما تنقلنا بين هذه المعاني لا نجد تفاوتا، بل نجد التعبير القرآني في أوج رفيع عجيب من الإعجاز والإشراق والبيان.

التوصيات:

هذه بعض التوصيات والاقتراحات التي أرجو أن تتحقق ويؤخذ بها مستقبلا:

- أدعو الدَّارسين والباحثين إلى تكثيف دراسة علم الإعجاز عامة، و"نظرية التصوير الفني" خاصة وإخراج هذه الدراسات في بحوث وكتب ورسائل

- أوصي كذلك بتتبع جهود الأديب "سيد قطب" –رحمه الله- حول نظريته في تفسيره "الظلال" وفي ثنايا مؤلفاته الأخرى.

- تطبيق نظرية التصوير الفني على الخطاب القرآني، وعرض أصولها وقواعدها بشكل أوضح تسهيلا وتيسيرا للطلاب والباحثين، والاستفادة من جماليتها وفنيتها قدر الإمكان.

- لم تزل العديد من الآيات التي تعرض مشاهد يوم القيامة وآيات القصص القرآني لم تطبق عليها هاته النظرية بعد... فلم تفسر بالطريقة الأدبية الفنية، ولم تبرز مفاتيحها

الجمالية... لهذا على الدارسين المتذوقين لجمالية الأسلوب القرآني التعرض لهاته الآيات ودراستها، واستخراج الكنوز الإعجازية منها.

وفي الأخير أختم بوصية صاحب "التصوير الفني" قائلا: (وبذلك بقي أهم مزايا القرآن الفنية مغفلا خافيا، وأصبح لابد لدراسة التعبير في هذا الكتاب المعجز من منهج للدراسة جديد، ومن بحث عن الأصول العامة للجمال الفني فيه، أو من بيان للسمات المطردة التي تميز هذا الجمال عن كل ما عرفته العربية من قول البشر، وتفسر الإعجاز الفني تفسيرا سيمد من تلك السمات المتفردة في القرآن الكريم)[1].

[1] سيد قطب، التصوير الفني، ص44.

.قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم (برواية ورش)

1- سيد قطب ابراهيم حسين الشاربي (1385ه)، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1، 1438.

2- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط17، 1412ه.

3- وصفي عاشور أبو زيد، في ظلال سيد قطب –رحمه الله- لمحات من حياته وأعماله ومنهجه التفسيري، ط1، 1430ه، صوت القلم العربي، مصر.

4- عبد الباقي حسين، سيد قطب –حياته وأدبه- دار الوفاء للطباعة والنشر، ط1، 1985م.

5- محمد بن مكرم بن علي أبو الفظل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت711ه)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414ه.

6- اسماعيل حقي بن مصطفى الاستنبولي، الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء (ت1127ه)، روح البيان، دار الفكر، بيروت، لبنان.

7- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت1376ه)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير الكلام المنان، تح: عبد الرحمن بن، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420ه.

8- أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (538ه)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1407ه.

9- فاطمة البيومي محمود سلامة، معالم الإعجاز القرآني في تصوير مشاهد القيامة، المؤتمر العلمي الدولي الخامس، آفاق الإعجاز في القرآن الكريم (مداخلة)، أفريل 2017م.

10- محمد الطاهر بن عاشور (ت1393ه)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984ه.

11- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، بيروت، لبنان.

12- محمد بن أحمد بن مصطفى أبي زهرة (ت1394ه)، المعجزة الكبرى –القرآن- دار الفكر العربي.